الإمام محمد أبو زهرة

الدعوة إلى الإسلام

تاريخها في عهد النبي والصحابة والتابعين
والعهود المتلاحقة وما يجب الآن

طبعة جديدة
١٩٩٢

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
الإدارة : ١١ شارع جواد حسني
ص . ب ١٣٠ القاهرة – ت : ٣٩٢٥٥٢٣

٢١٣,٠٩ محمد بن أحمد أبو زهرة، ١٨٩٨ - ١٩٧٤.

م ح دع الدعوة إلى الإسلام : تاريخها فى عهد النبى والصحابة والتابعين والعهود المتلاحقة ومايجب الآن/ محمد أبو زهرة - ط، جديدة. - القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩١.

٩٦ ص ؛ ٢٤ سم.

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

١- الإسلام - دعوة - تاريخ. أ- العنوان

مطبعة المدني

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت ٨٢٧٨٤١

تعريف بالشيخ الإمام

محمد أبو زهرة

الإمام محمد أبو زهرة غنى عن التعريف، إذ لا يختلف اثنان على أنه كان إمام عصره بلا منازع، ولكن من حقه علينا، ومن حق قارئه، أن نسطر عنه كلمات ولو فى أسطر قليلة تشير إلى نشأة ذلك الإمام، والجو الذى ولد وعاش فيه، والمواقف الشجاعة فى الإصلاح الاجتماعى والإسلامى، ولو أدى الأمر إلى الوقوف ضد اتجاهات السلطان.

هذا الإمام هو : محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد بن عبد الله، المولود فى عام ١٣١٦هـ، فى التاسع والعشرين من شهر مارس عام ١٨٩٨م. فى المحلة الكبرى إحدى مدن محافظة الغربية.

وأسرة أبو زهرة ينتهى نسبها إلى الأشراف، ولكنها لا تدعى ذلك كما يفعل الكثيرون، ممن يرفعون بذلك النسب خسيستهم، وإن كانوا فى واقع حالهم لا يستحقون الرفعة.

– بدأ الشيخ حياته التعليمية فى الكتاب. شأن كل أزهرى فى ذلك الوقت، ثم المدرسة الأولية حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم انصرف إلى المدارس الراقية، وبها أتم حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ العلوم المدنية كالرياضة والجغرافيا، بالإضافة إلى العلوم العربية، وفى سنة ١٩١٣م التحق بالجامع الأحمدى بطنطا حيث ظهر نبوغه وتفوقه على أقرانه مما أثار إعجاب المحيطين به من زملاء ومربين. وفى عام ١٩١٦م دخل الإمام محمد أبو زهرة مدرسة القضاء الشرعى بعد أن اجتاز امتحان مسابقة كان أول المتقدمين فيه، رغم فارق السن، وعدد سنوات الدراسة بينه وبينهم.

– وقد تنقل رحمه الله فى عدة مناصب بين كلية أصول الدين، وكلية الحقوق، وتدرج فى مراتب التدريس، من مدرس إلى أستاذ مساعد، إلى أستاذ ذى كرسى، إلى رئيس قسم الشريعة، إلى أن أحيل إلى التقاعد عام ١٩٥٨م، واختير عضوا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى فبراير عام ١٩٦٢، وهو المجمع الذى يعتبر بديلا لما كان يسمى فى الماضى هيئة كبار العلماء.

يتحدث عن نفسه، يقول:

- اختلطت حياتى بالحلو والمر، وابتدأت حياتى العلمية بدخول المكتب لحفظ القرآن الكريم، وإذا كان النبات قبل أن يستغلظ سوقه يعيش على الحب المتراكب، وقد يرى بالمجهر سورة النبات في ذلك الحب، فكذلك ينشأ الناشئ منا، وفى حبته الأولى فى الصبا تكمن كل خصائصه فى الكبر، وكنت أشعر وأنا فى المكتب بأمرين ظهرا فى حياتى فيما بعد.

الأمر الأول : اعتزازى بفكرى ونفسى، حتى كان يقال عنى أنى طفل عنيد.

والأمر الثانى : أن نفسى كانت تضيق من السيطرة بغير حق.

وبسبب هذين الأمرين كانت حياة الشيخ أبو زهرة سلسلة من المواقف الشجاعة، يناضل فى سبيل الحق ضد الباطل، ولم يرحل عن دنيانا إلا وقد ترك ثروة* من العلوم الشرعية الإسلامية التى تحيط بكثير من الموضوعات من كل جوانبها. فهو الكنز الذى لاينفد، والنبع الذى لا يزال ينهل منه الظامئون، ولا يضيق بكثرة الناهلين.

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خير ما يجزى عالما عاملا لم يرد إلا العزة والرفعة للإسلام والمسلمين.

الناشر

محمد محمود الخضرى

* المؤلفات الكاملة للإمام محمد أبو زهرة موضحة فى آخر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الإسلام

١- إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونتوب إليه، ونستغفره من تقصيرنا وسيئاتنا، ونرجو العون منه فيما أقدمنا عليه من قول، ونصلى ونسلم على محمد المبعوث للناس كافة بشيراً ونذيراً، وعلى آله وأصحابه الكرام الذين حملوا الراية من بعده، وقاموا بحق الرسالة، والإعلام بها، حتى عم العلم بها أكثر من يجاورونهم ممن اتصلوا به من الشعوب والأقاليم، رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم، وأثابهم على ما قدموا من بيان للرسالة.

أما بعد، فقد رأى مجمع البحوث الإسلامية أن يكون من بين الموضوعات التى يتدارسها مؤتمره العام لسنة ١٩٧٢ مسألة الدعوة إلى الإسلام، فتكون مبحثا من بحوثه، يتدارسه أعضاؤه، ويتواصون على القيام بحق التبليغ الإسلامى امتداداً للتبليغ المحمدى الذى أمر به منزل الكتاب الكريم على نبيه ومن اتبعه إلى يوم الدين.

وإنا نقدم بعون الله العلي القدير هذا البحث، وقد قسمنا القول فيه إلى عناصر وتمهيد، فيشتمل البحث على :

(أ) تمهيد، نشير فيه إلى نشر الإسلام ابتداء، وكيف كان بعد وفاة صاحب الرسالة.

(ب) وجوب الدعوة الإسلامية ومقامها من التكليفات الشرعية ومدى أمر الله تعالى للأجيال من بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى القيام بالدعوة إلى الإسلام، وليست إلا بيانه للكافة فى الشرق والغرب.

(ج) المنهاج الذى سلكه الحواريون من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الذين عاينوا وشاهدوا، لأنهم اتبعوا سبيل النبى ﷺ وهو سبيل المؤمنين.

(د) كيف انتشر الإسلام بعد الهداة الأولين، ومن الذين عملوا على نشره والدعوة إليه.

(هـ) الحال فى هذا العصر والمنهج الذى يسلك فى الدعوة إليه.

وإنا إذا أوفينا البحث فى هذه الأمور على قدر طاقتنا نكون قد قمنا بتوفيق الله ببعض ما يجب علينا من العهد الذى أخذه الله تعالى علينا وأكده تعالى« لتبيننه للناس ولاتكتمونه[1]».

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

التمهيد

١- إن التبليغ الذى أمر به الله تعالى النبى ﷺ فى قوله تعالى « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[١] » قد حملته أمته من بعده، ولها فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

وإنه إذا كانت الدعوة المحمدية عامة للناس كافة، وأنه لانبى بعده، فإن التبليغ لاينتهى بوفاة صاحب الرسالة، بل إنه يستمر ما دامت السموات والأرض لتحقيقها، ولتعميم العلم بالإسلام، حتى يكون استحقاق الثواب لمن يؤمن، والعذاب على من يكفر، فإن الله تعالى يقول « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[٢] » وقد بعث الرسول الذى هو خاتم النبيين، وعلّم أصحابه، وجعلهم رسلا من قِبَلِه للناس كرسل الحواريين فى عهد عيسى عليه السلام.

لقد ربى النبى ﷺ ذلك الجيل الذى عاصره من الصحابة، وعلم أصحابُه من بعدهم التابعين، وتوارث الناس العلم بالرسالة المحمدية جيلا بعد جيل، وحمل العلماء أمانة التبليغ، كما حمل أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بعد الرسل أصحاب الشريعة أمانة تبليغ رسالاتهم، وبيان شرائعهم ونشروها بين الناس، ولذلك قال النبى ﷺ :« علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل». لقد كان الله تعالى يبعث نبيين مبينين لشريعة من سبقوهم من الرسل داعين، كالأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى عليه الصلاة والسلام، مثل داود وسليمان وغيرهما من الذين لم يكونوا أصحاب شريعة، ولكن كانوا مطبقين للشريعة، حاكمين على مقتضاها.

فلما كان النبى ﷺ خاتم النبيين، ولا نبى بعده، ولا وحى ينزل على أحد من خلق الله بعده، كان لابد أن يكون من يقوم ببيان الشريعة، وتبليغها للناس، فكانوا هم العلماء، وكانوا كما قال الرسول ﷺ كأنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بعد الرسل أصحاب الشرائع، فكانوا يحق عليهم بيانها وتطبيقها ونشرها بين الذين خوطبوا بها.

٢- ولقد قام المسلمون الأولون من أصحاب رسول الله ﷺ بحق الدعوة، وخلفهم من بعد ذلك التابعون، وكان من الحكام بعد الراشدين من قام بحق الدعوة، كالحاكم العادل عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه، وكان من العلماء من اتخذ مبدأ الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه منهاجاً من منهاجهم، فالمعتزلة وغيرهم كانوا ممن حمل الدعوة إلى الإسلام والرد على الزنادقة، والمتهجمين على الحقائق الإسلامية.

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) الإسراء . ١٥

وكان المجاهدون الأولون لايجاهدون للغلب وفرض السلطان، بل كان جهادهم ليشقوا الطريق للدعوة الإسلامية، حتى لا تقف محاجزات دونها، كما سن النبى ﷺ، إذ أنه عندما خاطب برسله هرقل، والمقوقس وغيرهما من حكام الأقاليم، كان يريد أن يفتحوا باب الدعوة لتصل إلى شعوبهم، وإلا يفعلوا فعلى هؤلاء الحكام الذين يحاجزون بين الدعوة والشعوب، إثم هذه الشعوب، كما قال النبى ﷺ فى كتابه لهرقل أسلم تسلم، وإلا فعليك إثم الإريسين.

وما كانت الحرب لحمل الشعوب على الإسلام، بل كانت لفتح الطريق لإعلامهم بالإسلام ومبادئه « فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر[1]» وإنه من بعد ذلك يتحمل وزر إنكاره بعد أن يعلم الإسلام من كل وجوهه، ويعرف ما فيه من خير وما فى اتباعه من هداية وإصلاح فإن كفر بعد ذلك فعن بينة. وإذا آمن فقد سلك سواء السبيل ببرهان ربه، وأنقذه الله من الضلال عن بينة.

ولقد كان عمر بن الخطاب يفرض على الولاة الذين يرسلهم إلى الأقاليم أن يقوموا ببيان الإسلام. والتعريف بحقائقه لمن يحكمونهم مسلمين وذميين، فقد كان يقول لولاته «ما أرسلتكم لتضربوا أبشار الناس، ولكن لتعلموهم أمور دينهم»، وبذلك تتحقق الدعوة الإسلامية، ويقوم أمرها.

وكان من العمال الأتقياء ، من يقوم بالدعوة، وببينها تمكينا للإسلام، ثم كان أمر آخر، لا نذكره على أنه كان مقصوداً من الفتوح الإسلامية، بل نذكره على أنه جاء تابعا لها، ولغلب الحق على الباطل.

ذلك هو ما قرره علماء الاجتماع، وعلى رأسهم أول عالم اجتماعى «ابن خلدون» فلقد قرروا أن الضعيف مأخوذ دائما بتقليد القوى، واتباعه، ذلك أن القوة فى ذاتها دعوة إلى اتباع فضائل من يتحلى بها، ولأن ضعف القلوب يجعله يقتبس من أسباب القوة عند الغالب.

وإن الاحتكاك فى الحروب، يجعل الأخلاق والآداب تسرى بين الشعوب وتعلو الأخلاق القوية على الأخلاق الضعيفة، ويفيض الأعلى على الأدنى كشأن طبائع الأشياء فى الماديات والمعنويات على سواء.

فكانت الحروب معلّمة بالإسلام، ودعوة إليه من غير إكراه، لقد كان شأن المسلمين الأولين فى غزواتهم أن يخيّروا من يحاربونهم بين أمور ثلاثة : أن يسلموا ويبينوا لهم الإسلام، أو يعقدوا معهم العهد، ليأمن كل فريق صاحبه، أو الحرب.

---

(١) الكهف : ٢٩

وإن ذلك يقتضى حتما أن يتعرفوا الإسلام وما اشتمل عليه، ويقابلوا بينه وبين ماعندهم وإنهم بلا ريب سيجدون فيه علواً على ما عندهم، وفى وسط هذا تسرى المبادئ الإسلامية إلى الشعوب، كما يسرى النور فى الظلام، ويزيل كثافة الظلمات.

٣- وإن الأخلاق الإسلامية بجوار قوة المسلمين الحربية والمعنوية، وعدالة الغالب مع المغلوب، كل هذا يكون من شأنه أن يؤثر فى النفس، ويفيض منها ينبوع الخير، وتتفجر من القلوب التى كانت كالحجارة أو أشد قسوة، ينابيع الإيمان القوى العامل.

إن معاملة المغلوبين الحسنة من شأنها أن تفتح قلوب المغلوبين إلى الهداية.

وقد كان الغزاة الأولون فى قلوبهم رحمة ورأفة، وعدالة ووفاء وأخلاق العزة والكرامة التى لا تكذب ولاتنافق، ولاتهن ولاتذل، وإن ذلك؛ بلاشك من شأنه أن يدنى القلوب، ويؤلفها، وإذا دنت القلوب من أهل الإيمان سرى إليها، ولاتقف محاجزات بينها وبينه.

إنه ثبت نفسياً أن التعصب لدين من الأديان ليس منشؤه قوة الإيمان به إنما منشؤه ضعف فى النفوس، وانحياز فكرى، وعدم النظر إلى الأمر من كل نواحيه، ولاشك أنه إذا دنت القلوب بعد اغترابها، ولانت بعد عصبيتها؛ تركت الانحياز إلى الائتلاف، والابتعاد إلى الاقتراب، وعندئذ يدخل نور الإيمان، وتتفتح أمامه المغاليق.

وإن الأخلاق الإسلامية تؤلف ولاتنفر، وتقرب ولاتبعد، فلقد أوصى النبى ﷺ بحسن المعاملة، وروى فى بعض الآثار أن الدين المعاملة.

ولقد أوصى الله تعالى بحسن الجوار، وقال النبى ﷺ : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وحقوق الجار عظيمة من شأنها أن تربط بينهما بالمودة، والحسنى، وقد قال ﷺ: «والله لايؤمن، والله لايؤمن، والله لايؤمن، قالها ثلاثاً، قالوا : من يارسول الله؟ قال : ذلك الذى لايأمن جاره بوائقه».

ولقد كان لعبد الله بن عباس جار يهودى، فكان إذا أحضر لأولاده فاكهة، أعطى منها لأولاد جاره، وكان إذا ذبح شاة أهدى إلى الجار اليهودى منها.

ولقد نص النبى ﷺ على الإحسان إلى الجار المشرك، فروى عنه أنه ﷺ قسم الجيران إلى ثلاثة : جار مسلم نو رحم له حق الجوار وحق الرحم، وحق الإسلام، وجار مسلم، له حق الجوار وحق الإسلام، وجار مشرك له حق الجوار.

ومن هذه الأخلاق التى أوصى بها النبى ﷺ فيها بحسن العشرة، وحسن المعاملة، دخل الإسلام إلى القلوب، وقرب النفوس.

٤- وإن العدالة الإسلامية فى الشعوب التى حكمها كانت مرطبة لنفوس المغلوبين مدنية لقلوبهم، فالله تعالى يقول : «ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى»(١).

والنبى ﷺ أوصى بالذميين، وقال : « من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته ».

ولقد كان الخلفاء الراشدون حريصين على إكرام الذميين، والعدالة فيهم، وحققوا القاعدة الفقهية التى تقول «لهم مالنا، وعليهم ماعلينا» من غير وكس ولاشطط.

وإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وجزاه الله عن الإسلام خيراً، كان يعد المعاملة الطيبة من الولاة للذميين دليلا على عدلهم، فكان إذا لقى الوفود من الأقاليم الإسلامية فى موسم الحج كان أول أمر يسأل عنه، معاملتهم الذميين، فإذا تبين له أنهم يعدلون معهم عرف أنهم عدول فى ذوات أنفسهم ومع رعيتهم على اختلاف نحلها، فالعدل قربة وتقوى.

وإن المعاملة العادلة تجذب القلوب، وتدنيها، فإذا علموا أنها من الدين الجديد فتحت قلوبهم له، وصغت إليه واستجابت له.

ولنقص عليك قصة وقعت لشاب قبطى، وتصور مدى أثرها الدينى فى نفوس شعب مصر.

تسابق شاب مصرى مع ابن عمرو بن العاص، فسبقه المصرى، فعلاه ابن عمرو بالسوط يضربه، ويقول له: أتسبق ابن الأكرمين، فنشط الشاب المصرى إلى أمير المؤمنين، وشكا إليه الظلم الذى وقع به، فأبقاه عمر بالمدينة، وأرسل إلى عمرو يستدعيه هو وابنه، فقدما إلى المدينة.

---

(١) المائدة : ٨

واطمأن عمر العادل إلى صدق الدعوى، وأحضر الشاب المصرى، وأعطاه السوط، وقال : اضرب من ضربك، فأخذ يضربه، وكلما استأنى قال له : زد ابن الأكرمين. حتى اشتفى الشاب المصرى القبطى، ثم نحى أمير المؤمنين عمامة عمرو عن رأسه، وقال للشاب اضرب على صلعة عمرو، فباسمه ضربك، فقال الشاب : لقد ضربت من ضربنى يا أمير المؤمنين. فالتفت الفاروق إلى عمرو، وقال له تلك الكلمة النورانية الخالدة التى يترنم بها المسلمون وغير المسلمين إلى اليوم، قال : « منذ كم يا عمرو تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

لاشك أن هذه الحادثة سرت أخبارها بين المصريين، ووازنوا بهذا بين حكم الرومان الذى كان يجعلهم عبيداً؛ ولو كانوا نصارى مثلهم؛ وحكم الإسلام العادل الذى يجعلهم أحراراً، أو يحترم حريتهم الفطرية، ولو كان المعتدى أميراً أو ابن أمير، إن ذلك وحده دعوة عملية نافذة إلى الصدور، فلا غرابة أن تدخل مصر بعد ذلك فى الإسلام أفواجاً، طوعاً لاكرهاً وبرغبة لابرهبة.

ولعلهم رأوا عمر بن الخطاب يعيد إقامة حد الشرب على ابنه خشية أن يكون عمرو بن العاص قد حاباه فى إقامته بمصر، وقد رأوا ذلك رأى العيان وأى عدل أعلى من هذا، وهكذا نرى أن العدل فى ذاته دعاية قوية إلى الحق، لاتوجد دعاية أقوى منه بياناً، وأشد برهاناً.

٥- وإن العدالة حتى فى الحرب، والسيوف مشتجرة كانت سائدة واضحة. يحكى تاريخ عمر بن عبد العزيز الحاكم العادل، أن أهل صغد من أعمال سمرقند شكوا إلى الحاكم العادل عمر هذا أن قتيبة بن مسلم دخل ديارهم فاتحاً، من غير أن يخيرهم بين الإسلام أو العهد أو القتال، كما هو الشأن فى الحروب الإسلامية.

شكوا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فأرسل إلى القاضى يأمره بأن يجلس ويحقق الشكوى، ويجمع بين الشاكين والقائد العظيم قتيبة بن مسلم، فسمع القاضى إلى الشكاة، وإلى مقالة قتيبة، فتبين له صدق الشكوى، فأمر الجند الفاتح أن يخرج من ديار سمرقند، ويعود إلى ثكناته قبل الفتح، ثم يعود القائد إلى تخييرهم بين الإسلام والعهد والقتال.

لاشك أنهم يختارون العهد ولايختارون القتال، والكثيرون منهم يدخلون فى الإسلام، سواء أرضى أولياء الأمر فيهم أم لم يرضوا.

إن الإسلام كان دين العدل فى وسط عنجهية الحكم الطاغى، والظلم المبين، وكان فيه إنقاذ الرعية من الولاة الظالمين، والظلمة الآثمين.

ولاشك أنهم عرفوا أن الإسلام فى عهوده التى يعقدها مع الحكام ملوكا كانوا أو غير ملوك، كان يشترط عليهم العدل فى رعاياهم، فإن لم يعدلوا فقد نكثوا فى أيمانهم ورد إليهم عهدهم، وقام المسلمون بقتالهم لإبعادهم عن ظلم الرعية، ذلك أن الظلم حرام فى الإسلام، جاء بتحريمه القرآن ووصايا النبى ﷺ، وكل شرط يحل حراما أو يحرم حلالا فهو رد على من اشترطه كما قال ﷺ : «المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حراما أو حرم حلالا» وإن الظلم حرام بحكم الشرع، وبحكم العقل.

الحال الآن

٦- حالت الأحوال، وتغيرت الأمور، فصار ما يظهر من المؤمنين يخالف مايدعو إليه دينهم، وصار بأسهم بينهم شديداً، والعدل الذى كان داعيتهم اختفى فيما بينهم، فلم يعدلوا فى أنفسهم، ولم يكن العدل أساس علاقتهم بغيرهم، إذ فسد حكامهم، وصار الطغيان هو الذى يسيطر عليهم، ويزعمون أن ذلك حكم الإسلام، واضطربت الأمور، وشغرت الأمة من أن ترى حاكما يحق الحق، ويزهق الباطل، ويعلى معالى الأمور، وحَكَمَ الهوى والشهوة واستمر الظلم فيما بينهم، حتى ضعفوا وهانوا، وبعد أن كانوا الأقوياء الذين يطلب منهم العدل فى أنفسهم وغيرهم صاروا الضعفاء المستجْدين الذين يستجْدون العدل من غيرهم لأن العدل فضيلة القوى، لم يعودوا أقوياء، بل صاروا المستضعفين الذين استخنوا وذلوا، وصار غيرهم يتصرف فى أمورهم، ولا رأى لهم، وإن استشاروهم ظاهراً، فالأمور يبت فيها من ورائهم باطناً، ولاحول ولاقوة إلا بالله تعالى، وهو مصرف الأمور ومقلب القلوب.

ولقد كان التجار المؤمنون يحسبون أن عليهم واجب التبليغ فبلّغوا مع فساد الحكام، وإن شرق أفريقيا كان تجار الحضارمة فى وسط ظلم الحكام وفساد بيوت المال، يقومون بالدعوة فيه حتى فشا الإسلام فى الصومال وزيلع وبربر وصومع وإيرتريا والحبشة، وكانوا الغالبية الساحقة فيها، وإن لم يكن لهم بطش أمام حكامها غير المسلمين المؤيدين من المسيحية العالية التى لاتتمثل فيها روح السيد المسيح عليه السلام.

وأخلاق المسلمين الظاهرة تغيَّرت، فلم يكونوا في هذا الزمان صورة للاستقامة وقوة الإيمان، واستشعار العزة، بل خنعوا وهانوا في أنفسهم، فهانوا في نظر غيرهم، ورضوا بالأمور القائمة، وإن كانت تفرض الذل عليهم، وإذا دعاهم داع إلى العزة استهانوا بدعوته، أو وضعوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وقاوموا وعاندوه، ورضوا أن يكونوا قوما بوراً، وأن يكونوا أذلة للكافرين المتحكمين، والمتغطرسين على المؤمنين، وغيروا وبدلوا في معاني كتاب الله تعالى الخالد الذي وصف الأولين من المؤمنين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، فبدلوها بأن صاروا أعزة على ضعفائهم أذلة لغيرهم، وبعد أن قال الله في وصف المؤمنين الصادقين أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، صاروا خانعين للكفار أشداء على أنفسهم، يسومون إخوانهم العسف والهوان، ويطأطئون الرءوس هلعاً وخوفاً أمام غيرهم.

ولقد حكمت الأهواء والشهوات الملوك وسرت إلى الرعية، وهذا وهن من الأمم، ولقد قال ﷺ فيما روته الصحاح:

«تتداعى عليكم الأمم تداعي الأكلة على قصعتها، قالوا: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله تعالى من قلوب عدوكم المهابة منكم، وليرزقنكم الوهن، قالوا: وما الوهن يارسول الله، قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

وهانحن أولاء الآن كذلك في هذا الزمان، غلبت على حكامنا الأهواء والشهوات، وسرت إلى من حولهم الذين يلفون لفهم، ويدورون حولهم، ويلقفون من مائدتهم ما يبقى منهم، غير ملاحظين ديناً ولاخلقاً، ولامروءة ولاكرامة.

وقد يقول قائل: هل صارت الأمة كلها كذلك، وقد قال النبي ﷺ: «الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة» ونقول في الإجابة عن ذلك، إنا نرجو أن نكون من أمة واحدة التي قال فيها عليه الصلاة والسلام ذلك.

ولكن نقول إن هذا الأمر البارز الظاهر، وهو تحكم الأهواء والشهوات، والدعوة إلى اللهو والعبث، وسيطرة الترف، والله تعالى يقول: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحق عليها القول، فدمرناها تدميراً[1]».

(١) الإسراء: ١٦

إن فى المسلمين بحمد الله صالحين مؤمنين، ولكن غمرهم الذين أفسدوا المجتمع الإسلامى، وجعلوه مجتمعاً لاهياً لاعباً، فإن لم يكن كذلك كان خانعاً مستسلماً، لايغير ولايبدل، وهو يرى التغيير فى أحكام الله تعالى والتبديل فيها، ولايعلن استنكاره، وإن استنكر فبقلبه، وهو أضعف الإيمان. وبذلك صار المسلمون قوماً بوراً، إذ رأوا الباطل، ولم يعلنوا استنكاره، والظلم ولم يقاوموه، والنبى ﷺ يقول : « لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدى الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله تعالى قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلايستجاب لكم» ولقد قال ﷺ « لايسأل العامة ظلم الخاصة حتى يروا الظلم فلا يغيروه ».

نحن نسلم أن المفسدين ليسوا الكثرة، بل ليسوا فى أنفسهم كثيرين، ولكنهم الذين سيطروا على الرأى العام، وشكلوا المجتمع بشكلهم.

وبذلك ضعف المسلمون عن الدعوة إلى الله تعالى والتبليغ الذى حملوه عن النبى ﷺ، فضاعت الدعوة بضياعهم.

٧- هانت الدعوة، ليس عند عامة المسلمين فقط، بل إننا رأينا من العلماء من يزعم أن التبليغ قد تم، وأن غير المسلمين عليهم أن يتعرفوا الإسلام من غير أن نعرفهم، وأنهم مسئولون عن جهلهم بحقائق الإسلام، ولسنا مسئولين عن تعريفهم به، مادام الإسلام قد أعلن ابتداء، وظهر أمره فى الوجود، ولو كان قد ذكر عندهم بغير حقائقه، وبغير أصوله، فعليهم أن يبحثوا، وليس علينا أن نعلمهم بعد الإعلان، ونسوا قول على كرم الله تعالى وجهه: «لايسأل الجهلاء لم لم يتعلموا حتى يسأل العلماء لم لم يعلموا» ولكن تقاصرت الهمم، حتى وصل القصور إلى من تجب عليهم الدعوة.

لقد أهملنا الدعوة والتعريف بالإسلام حتى بين المسلمين، إن فى أطراف البلاد الإسلامية، من لم يعرف من الإسلام إلا الشهادة، والصلاة على انحراف فى أدائها، ففيهم من يجهلون أحكام الزواج ما يحل منها، ومايحرم، ففى أطراف أندونسيا من يبيحون لأنفسهم عن جهل زواج الوثنية بالمسلم وزواج المسلمة بغير المسلم كتابياً أو وثنيا، ولاتقوم جماعة أو آحاد، بتعليمهم مبادئ الإسلام فى تكوين الأسرة، وما يحل فيها، ومايحرم.

وهكذا كان التقاطع، والتدابر من أسباب جهل المسلمين بدينهم فضلا عن أن يوفروا أحكامه لغيرهم، ويبلغوا رسالة نبيهم فى الآفاق.

ولكن مع ذلك استمر الإسلام ينتشر، لأنه فى ذاته حقائق تدعو بذاتها، وفيها برهان صدقها، ودليل العرفان بحقها.

وإن الرجل يقرأ فى التراجم الشائهة، فيلمس فيها النور وسط ظلمات التشويه فيؤمن، مع العوائق التى تحول بينه وبين الإيمان من أحوال المسلمين الظاهرة.

إن المسلمين قد شاعت فيهم عادات وأخلاق قد تكون حجة على الإسلام، وتقف محاجزات بينه وبين من يلتمس الحق فيه، وهو مع ذلك لايزال ينتشر بقرآنه وحقائقه، وسنة نبيه ﷺ، ولا يزال بعض المفكرين يطلبه مع هذا الركام الذى ارتكس فيه المسلمون.

وإننا نجد التبشير النصرانى يحاول أن ينشر النصرانية بين المسلمين جاهدا، ولكنه يرتد خاسئاً وهو حسير، من حيث العقائد الإسلامية والأحكام العملية التى اشتمل عليها.

ولكنه يجئ إلى النفوس التى حلها الهوى، وأفسدتها الشهوة، واستولى عليها تقليد أقوياء هنا، فيحاول أن يخرجها من العمل بحقائق الإسلام، وأحكامها، فيظن الظنون فيما جاء به القرآن، وبذلك نبتت فيه داعية الخروج على الأحكام الإسلامية، فنبتت داعية الدعاة إلى الربا بزعم أن الزمن يطلب التحلل من أحكام الله تعالى القاطعة، وداعية تقليد النصارى فى الطلاق وتعدد الزوجات، وغير ذلك مما بدت أضراره عند النصارى وهو سلامة للمؤمنين، والأسرة الإسلامية أقوى الأسر فى العالم تماسكا، وأقواها نظاما، ولكن هكذا كانت الآفة فى النفوس، ولم تكن فى الإسلام.

ولقد اجتمع مؤتمر فى القدس من نحو بضع عشرات من السنين فقيل لكبيرهم إن النفقات على التبشير كبيرة، ولكن لانجد من يخرجون من الإسلام إلى النصرانية، فذكر أن المبشرين لم ينجحوا فى إدخال المسلمين فى النصرانية، ولكنهم نجحوا فى تهوين الحقائق الإسلامية فى بعض المسلمين، فهل آن أن نعتبر، وندفع الشر، ونحصن أنفسنا منه، وهل آن لنا أن نعرِّف الناس بديننا، والعالم فى حاجة إليه، لأنه الدين الذى يؤمن بالله والرسول، والعقل والعلم، وإنه لابد أن يكون ذلك ولو بعد حين.

وجوب الدعوة بحكم تكليفى

٨- إنه من مكرور القول أن نقول إن الإسلام دين الكافة، فإن رسول الله محمداً ﷺ أرسل إلى الناس كافة كما قال تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً[١]»، وكما قال تعالى « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً»[٢]

ولقد قال رسول الله ﷺ، «كل نبى بعث إلى قومه وإنما بعثت للأحمر والأسود» فبمقتضى الأثر وتلك الآيات كان الإسلام دين الكافة، والناس جميعاً مطالبون بالاستجابة لما جاء به النبى ﷺ، وسجله القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه فى محكم آياته.

وإنه لانبى بعد النبى ﷺ فهو خاتم النبيين، وقد قال تعالى فى ذلك « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين»[٣].

وعلى ذلك يكون الإسلام دين الأجيال، فهو دين الجيل الذى بعث فيه محمد ﷺ، ودين الأجيال من بعده، حتى يوم الدين.

وإنه لاتكليف من غير إعلام، ولاثواب ولاعقاب من غير علم بالرسالة ودعوة إليها، فإذا كان الإسلام ديناً عاماً، وديناً خالداً يخاطب الأجيال كلها، فلا بد من معلمين داعين، ولا بد من دعوة دينية مستمرة متجددة يتنقل فيها بين البشر، ليتحقق العلم بهذا الدين الحنيف الذى هو دين الله كما قال تعالت كلماته : « إن الدين عند الله الإسلام »[٤].

وقد تولى النبى ﷺ الدعوة بنفسه، وكانت دعوته إلى التوحيد وما أمر الله تعالى به، وما نهى عنه، بتلاوة القرآن بين ظهرانى المشركين وبيان أحكامه للمؤمنين، كما منَّ الله تعالى بذلك عليهم؛ إذ يقول سبحانه وتعالى :« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم »[٥].

---

(١) سبأ : ٢٨ (٢) الأعراف : ١٥٨ (٣) الأحزاب : ٤٠

(٤) آل عمران : ١٩ (٥) الجمعة : ٢، ٣

وكانت دعوته لمن يلاقيهم من الأقوام آحاداً وجماعات، وكان يرسل جماعات من أصحابه الذين علموا علم الإسلام، وفقهوا أحكامه إلى الأقوام يهدونهم ويعلمونهم، ومنهم من كان يطلب فقهاء فى الإسلام ليعلموهم فكان النبى ﷺ يرسل، ومن الأعراب من كان يغدر بهم، وينافق فى دعوتهم إلى التفقه، وهم يبيتون الشر، كما قتلوا غدراً ستة من المؤمنين الصادقين، وكما قتلوا سبعين قتلة فاجرة، ولكن النبى ﷺ، كان يريد نشر الدعوة، وما كان يعلم ماتكنه القلوب، ولكنه كان يريدهم أنصاراً كالحواريين، كما قال تعالى؛ « يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله، فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة »(١).

ولما سيطر النبى ﷺ على البلاد العربية، وصارت كلمة الله تعالى هى العليا كان يرسل لمن لم يدخل فى الإسلام ممن أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون من يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم وقد أرسل إلى جزء من اليمن أبا موسى الأشعرى، ومعاذ بن جبل دعاة وهداة، وأرسل فى الجزء الثانى خالد بن الوليد، ولكن لم يستجيبوا له، فأرسل إليهم على بن أبى طالب فدعاهم، ثم أمهم من بعد دعوته إلى الصلاة.

قام النبى ﷺ بالتبليغ الكامل استجابة لأمر الله تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس »(٢).

ولم يكتف النبى ﷺ فى تبليغه رسالة ربه بالرسل يرسلها إلى الأقاليم، قاصيها ودانيها، سهلها ووعرها، نجدها وسهلها، بل تجاوز فى تبليغه إلى غير العرب، فأرسل إلى هرقل ملك الرومان يدعوه إلى الإسلام، وجاء فى كتابه ..

« من محمد رسول الله إلى هرقل ملك الروم ...

إنى أدعوك بدعاية الله، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، وإن لم تفعل فإن عليك إثم اليريسين، « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »(٣).

---

(١) الصف : ١٤ (٢) المائدة : ٦٧ (٣) آل عمران : ٦٤

وأرسل مثل ذلك إلى المقوقس عظيم مصر، وإلى النجاشى ملك الحبشة، وإلى كسرى فارس، وغير هؤلاء، ومنهم مَنْ ردَّ رداً جميلا، وإن لم يستجب لدعوة الحق، ومنهم من قبح رده، وأخذته العزة بالإثم، وهو كسرى، وقد مزق الله ملكه، إذ مزق كتاب النبى ﷺ ، وبعث من يقتل النبى ﷺ فقتلته رعيته.

وهكذا نجد النبى ﷺ ، قام بحق الدعوة، ودعا بالحكمة لتبليغ رسالة ربه كما قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن »[1].

وكما قال تعالى : « وادع إلى ربك ولاتكونن من المشركين»[2] وكما قال تعالى : «وادع إلى ربك، إنك لعلى هدى مستقيم »[3].

وإن الدعوة إلى الله هى عمل الأنبياء، كما قال تعالى: «يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »[4].

وهكذا كانت دعوة النبى ﷺ ماضية قائمة، كان يدعو بنفسه، وبرسله وكتبه حتى بلغ رسالة ربه، وأودع أمانة الدعوة من بعده الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين.

التكليف لمن بعده :

٩- لقد خاطب النبى ﷺ بدعوة التوحيد من عاصروه من العرب ومن جاورهم، وما كان من شأن دين تطالب به الأجيال كلها فى مشارق الأرض ومغاربها، أن يترك مَنْ بَعْدَهُ فى عماء من أمره، ولايعرفون شيئا عن العقيدة التى دعا إليها ذلك الدين، بل لايترك محمد ﷺ، الأمر من بعده من غير تكليف لمن اتبعوه، واهتدوا بهديه أن يقوموا بحق الدعوة ونشرها، لأنه لايمكن أن يكون المخاطبون بهذا الدين، وهم الإنسانية كلها من بعده من غير هاد يدعو، ولامرشد يبين قياساً على قوله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »[5] ، وقوله تعالى: «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »[6]، فالنذير المحذر، والبشير المبشر، لابد من وجودهما فى كل عصر.

---

(١) النحل : ٢٥ (٢) القصص : ٨٧ (٣) الحج : ٦٧

(٤) الأحزاب : ٤٥، ٤٦ (٥) الأسراء : ١٥ (٦) فاطر : ٢٤

وأولئك يقومون مقام الأنبياء في بني إسرائيل، كما أشار إلى ذلك قول النبي ﷺ في قوله . « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل ».

إن الله أرحم بعباده من أن يترك الناس من بعد رسوله خاتم النبيين بوراً لاهادي يهديهم ولا داعي للحق يدعوهم إليه، والعقول وحدها لاتكفي للهداية، وقد ضلت العقول وتاهت الأفهام تحت لجاجة الأهواء والشهوات، وعندئذ يتخذ الناس إلههم هواهم.

لذلك كان تكليف النبي تبليغ دعوته تكليفاً لأمته، وقد صرحت بذلك الآيات البينات من كتاب الله تعالى، فقد قال تعالت كلماته : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين »[1].

وقد دلت هذه الآية على أمور ثلاثة :

أولها – أن دعوة المؤمنين إلى الله من اتباع النبي ﷺ، وأنه من تخاذل عن الدعوة لايعد تابعاً للنبي ﷺ .

ثانيها – أن تكليف النبي ﷺ تبليغ رسالة ربه تكليف لأمته، لايتخلى عنه مؤمن ولايتركه أمين .

ثالثها – أن يكون الداعي له بصر بالأمور، يأتيها من طرقها المسلوكة في رفق، لينا في دعوته، يأتي الأمور من مصادرها ومواردها مؤمنا بها على بينة من أمرها، لا تأخذه في الحق هوادة، وليس للباطل عنده إرادة .

وإن الآية الكريمة في جملتها تدل على أن الإيمان وحده لايكفي في اتباع النبي ﷺ بل لابد لكمال الاتباع من الدعوة، بل عليه لأجل الاتباع أن يسلك سبيله في الدعوة إلى الله، وهو الهادي إلى سواء السبيل، فمن اهتدى من بعد البيان فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما الله يريد ظلما للعباد.

وإن الله تعالى جعل المسلمين شهداء على الناس، وجعل الرسول شاهداً عليهم، وشهادتهم على الناس تقتضي دعوتهم إلى الحق، وشهودهم لحالهم في إيمانهم وكفرهم، والرسول شهيد عليهم في أنهم بيّنوا شريعته، ووضحوا رسالته للناس، وقد صرح الله سبحانه وتعالى بهذه الشهادة القائمة المستمرة فقال تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس»[2] وقال تعالى :

(١) يوسف : ١٠٨ (٢) الحج . ٨٧